

## معلمة "تاريخ الجزائر الثقافي" للدكتور الراحل أبي القاسم سعد الله:

### شهادة تقدير وعرفان بقلم أحد مرافقيه

**“Cultural History of Algeria” Encyclopédie by Dr Abu Al-Kacem Saad Allah:**

**A certificate of appreciation and gratitude by one of his companions**

مراد وزناجي<sup>1</sup>

جامعة الجزائر - 3-

o\_mourad2000@yahoo.fr

تاريخ الوصول: 2020/01/29 القبول : 2021/05/06 النشر علي الخط: 2021/06/15

Received:29/01/2020 Accepted: 06/05/2021 Published online: 15/06/2021

### ملخص:

يتمثل كتاب الدكتور الراحل أبي القاسم سعد الله "تاريخ الجزائر الثقافي"، في سلسلة مجلدات، عددها أحد عشر. صدرت تباعا في أكثر من خمس طبعات، أولاها عن دار الغرب الإسلامي ببيروت (1981)، وآخرها بالجزائر (2015). وضمت الموسوعة معطيات غزيرة بخصوص وضع الثقافة والمثقفين وإنتاجهم في الجزائر، من الفتح الإسلامي (683م)، الى غاية الاستقلال الوطني (1962). وغطى الكتاب أكثر من عشرة قرون، وبعدد من الصفحات قارب الستة آلاف، ما يبرز الجهد والوقت الكبيرين اللذين بذلهم المؤلف في جمع المادة من مختلف البلدان التي سافر إليها. وتحاول هذه الدراسة التعريف بالعمل وصاحبه، وفق قراءة تحليلية، لتقديم ثقافة الجزائر وعلمائها في الفترات المذكورة، مع سيرهم وإنتاجهم، في حقول معرفية وفنية متعددة.

**الكلمات المفتاحية:** أبو القاسم سعد الله - كتابة التاريخ - المثقفون الجزائريون - تاريخ الجزائر الثقافي.

### Abstract:

"The Cultural History of Algeria" by the late Dr Abu al Kacem Saad Allah, is a series of works, which consists of eleven volumes. It has been published in more than five editions. The first in Beirut (1981), and the last in Algeria (2015). This encyclopedia contains rich information on intellectuals and their various products in Algeria, since the Islamic advent) 683 (until Algerian independence) 1962 (, with almost six thousand pages. This analytical approach presents the work and its author, as well as Algerian scholars, during the period mentioned.

**Keywords:** Abu al Kacem Saad Allah - Writing History - Algerian Intellectuals - Cultural History.

### 1 مدخل:

1- المؤلف المرسل: مراد وزناجي البريد الإلكتروني: o\_mourad2000@yahoo.fr

دأب أغلب الباحثين الجزائريين، في مجالات الإعلام والأدب والتاريخ وغيرها من الميادين، على وصف الراحل الدكتور أبو القاسم سعد الله، حيا وميتا، بـ "المؤرخ" وفقط، وكأن الرجل لم يكن مشغولا سوى بالتاريخ. وهو، في اعتقادنا، إجحاف في حق الرجل. ذلك أن الراحل كان بمثابة آخر حبات العنقود المستمسكة بسلسلة العلماء الموسوعيين، الجزائريين العرب. وتشرفت بمرافقة الرجل والتعرف إليه عن قرب، خلال الاثنتي عشرة سنة الاخيرة التي قضاها في الجزائر، مباشرة بعد استقراره بها، على إثر عودته من الأردن العام (2002)، بعد ست سنوات قضاها هنالك في التدريس بجامعة (آل البيت). وكنا نلتقي ببيته بالعاصمة وفي المستشفى حيث كان يعالج، أو بمقر المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 بجي الايبار، الى اخر أيام حياته. ونتج عن تلك المرافقة اصدار كتابين اثنين عن الرجل، الأول هو (حديث صريح مع الدكتور ابي القاسم سعد الله: في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ)، الصادر في طبعات ثلاث (2008، 2010، 2014)، والثاني هو (مفهوم التاريخ عند الدكتور ابي القاسم سعد الله)، الصادر سنتي (2014) و(2015)، علاوة على مقالات ومحاضرات قدمتها عنه في مناسبات عديدة.

لا يمكن، في الواقع، لكل من عرف سعد الله الانسان، الا الإشادة بخلقه وتواضعه وحبه للعلم والعلماء. غير ان الحديث عن الراحل لن يكتمل من دون الحديث عن اعماله. انها الاعمال التي سخر حياته وعلمه ووقته وماله لأجلها. ويبقى من المؤكد ان أقرب عمل الى الراحل كان وبلا شك، كتابه المعلمة "موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي"<sup>1</sup>. غير ان الجزء الاخير منها (من سنة الفتح الاسلامي الى غاية عشية الدخول العثماني للجزائر)، كان مشروعه الأسمى الذي ظل يصرح بشأنه: أخشى ان تنطفئ الشمعة ولا ينجز العمل". انه المشروع الحلم الذي تحقق فعلا قبل ان يغيب الموت الرجل. ويمكن القول ان ميلاد تلك الموسوعة كان عبر "ولادة قيصرية"، بسبب كل ما عاناه صاحبها في سبيل إنجازها وطبعها.

وضمت "موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي" معلومات كثيرة ومعطيات غزيرة بخصوص الثقافة والمثقفين وإنتاجهم المتنوع في الجزائر، منذ الفتح الإسلامي سنة (683م)، الى غاية قهر المحتل الفرنسي على أيدي جيش وجبهة التحرير الوطنيين سنة (1962). أي أن الفترة التي غطاها الكتاب تفوق العشرة قرون، وبعدد من الصفحات يفوق الخمسة آلاف وخمس مائة صفحة. ويبرز هنا، الجهد والوقت اللذين استغرقهما الراحل د. سعد الله، من اجل جمع المادة من مختلف البلدان التي شد الرحال إليها، ثم تنقيحها وتصحيحها ومقارنتها وصياغتها. وتحاول هذه الدراسة التعريف بالعمل وبصاحبه، استكمالا لما قام به هو، في تقديم ثقافة الجزائر، بتبيان علمائها وإنتاجاتهم المتنوعة في مختلف العلوم والفنون.

## 2 نهاية مثلى لموسوعة ثمينية:

1- د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 11 مجلدا، (تكملة الاعمال الكاملة)، طبعة خاصة بوزارة الثقافة، عالم المعرفة، الجزائر، 2015.

عرف هذا الكتاب في الأوساط العلمية والثقافية الجزائرية بتسمية "معلمة تاريخ الجزائر الثقافي"، والذي صدر بداية في عشر مجلدات، تتحدد الفترة الزمنية المدروسة فيها ما بين سنة (1500م) (عشية الدخول العثماني للجزائر) وسنة (1962) عقب انتصار الثورة التحريرية الجزائرية. غير أن المجاهد والراحل سعد الله كان يفكر أبعد من ذلك، ولم يكتف بالأجزاء العشرة من معلمته، وقرر العودة بتاريخ الجزائر الثقافي إلى ما قبل سنة (1500م)، فجدد العهد مع السفر من أجل القيام بأعمال البحث والتنقيب في طيات تلك المرحلة التاريخية الغامضة والمتعلقة بالمرحلة الإسلامية، وتمكن قبل رحيله بأشهر قليلة فقط سنة (2014)، من الوصول فيها إلى الفترة الممتدة ما بين الفتح الإسلامي إلى غاية الدخول العثماني.

وقبل ذلك الجزء الأخير (الفترة الإسلامية) كان كتب فيها عن تاريخ الثقافة والمثقفين في الجزائر من بداية الفترة العثمانية إلى غاية الاستقلال الوطني، وهي فترة تقارب الخمسة قرون. وللتدليل على أهمية الكتاب موضوع الدراسة، يجدر بنا التأكيد أولاً على أن الراحل كان سابقاً إلى اختيار موضوع البحث الذي لم يسبقه أحد إليه. وثانياً، فإن مشروعاً بهذا الحجم والمستوى والعمق، كان من المفروض أن تتكفل به مؤسسة رسمية أو هيئة علمية على غرار مراكز البحث والجامعات والوزارات وغيرها. لذلك، وبذلك يكون هذا البحث المعمق قد سد فراغاً رهيباً في تاريخ الجزائر الثقافي.

### 3 سيرة مثقف زهد في المناصب:

يعتبر الراحل سعد الله، مناضل ومجاهد ومؤرخ ومفكر جزائري، ولد بوادي سوف في الجنوب الجزائري سنة (1930)، حفظ القرآن الكريم بالكتاب، ثم تخرج من جامع الزيتونة بتونس، ودار العلوم بالقاهرة، وجامعة مينيسوتا بأمريكا، ودرس في الجزائر وفي عدد من جامعات العالم. وبعد الراحل أول باحث جزائري يحرز درجة الدكتوراه في التاريخ سنة 1965، بفضل الشهادة التي عاد بها من الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1967 إلى الجزائر<sup>1</sup>، حينما قرر العودة إلى الديار والاستقرار بها نهائياً، رافضاً حمل الجنسية الأمريكية التي عرضت عليه يومها. أتقن سعد الله لغات علمية كثيرة هي: الإنجليزية والفرنسية والألمانية والفارسية، علاوة عن العربية. وجمع بين مجالات عديدة في ميدان العلوم الإنسانية وغيرها: فهو الشاعر والقاص والمؤرخ والناقد والمترجم والرحالة والصحفي والمحقق واللغوي. أي أنه لم يكن مؤرخاً فقط، بل عالماً موسوعياً. وألف عشرات الكتب والمجلدات والمقالات. عايش الدكتور سعد الله عن كتب، عدداً من الشخصيات العلمية والثقافية والتاريخية، الوطنية والعالمية. فآثر فيها وتأثر بها. كما تعرف على شخصيات أخرى صنعت لنفسها اسماً في تخصص ومجال نشاط كل منها. ومعلوم أن الدكتور سعد الله كان قريباً من الإصلاحية الزاهد والشهيد الشيخ العربي التبسي<sup>2</sup> الذي اختطف سنة (1957) بالعاصمة من قبل قوات الاحتلال الفرنسي، دون أن يظهر له خبر منذ تلك السنة، وهو أحد الأعضاء البارزين والمؤسسين لجمعية العلماء المسلمين

1- عانى الراحل كثيراً في تلك السنة، بسبب المشاكل التي لقيها بخصوص الاعتراف بشهادته (الدكتوراه) الحاصل عليها سنة 1965 من جامعة "مينيسوتا" الأمريكية، ومعادلتها في الجزائر. علاوة على صعوبات أخرى واجهته من لدن بعض الأشخاص في الجامعة، من المنتمين إلى تيار معاكس، كان يقف ضد مسألة التعريب التي كان الراحل مدافعاً عنها. علاوة على مشاكل أخرى واجهته مع قضية السكن.

2- يعرف عن الشيخ العربي التبسي رحمه الله كونه الشهيد الذي لا قبر له". وتعرف المرحوم سعد الله على الشهيد قبيل سفره إلى مصر للدراسة بكلية دار العلوم، حيث ساعده الشيخ التبسي في ذلك مادياً ومعنوياً، وكلفه بإيصال رسالة إلى الرئيس الفعلي للجمعية، الشيخ البشير الإبراهيمي، المقيم هناك منذ بداية الخمسينيات. وكان الشيخ التبسي يشكو لسعد الله من واقع جمعية العلماء بسبب غياب رئيسها الفعلي، ومن المؤامرات التي تحاك ضده من طرف بعض الأعضاء. (ولمزيد من التفاصيل حول هذه المسألة، ينظر كتاب "حديث صريح").

الجزائريين. وكان سعد الله ملازما للعلامة الفصيح، رائد "مدرسة الصنعة"، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي<sup>1</sup>، الذي أطلق عليه لقب "سعد السعود". كما تعرف إلى الأمير عبد الكريم الخطابي. وتعرف إلى المجاهد والوزير الأول بلعيد عبد السلام. ولزم الشاعر الفذ محمد العيد آل خليفة، ورافق الأستاذ والمناضل المرحوم عبد الحميد مهري، ولزم عددا من الأساتذة الجامعيين والباحثين الجزائريين الذين كان يتذكرهم في كل مرة ويذكرهم بخير، ومنهم: د/ عبد الله الركيبي، د/ أبو العيد دودو، د/ يحي بوعزيز، وغيرهم كثير.

كان الراحل عضوا مراسلا "بمجمع اللغة العربية بالقاهرة" لسنوات عديدة، وكان صاحب نشاط وقوة اقتراح، وذا دور فعال في تلك الهيئة التي مثل الجزائر فيها رفقة زميله د/ عبد عمار الطالبي. ويعتبر الراحل من الجزائريين القلائل الذين جمعوا بين الكفاءة العلمية والإنتاج المعرفي والجهد في سبيل تحرير الوطن من الاستعمار الفرنسي. وهو المنضم إلى جبهة التحرير الوطني بالقاهرة سنة (1955)، بينما كان طالبا بإحدى جامعاتها (جامعة دار العلوم بالقاهرة)، وناضل دفاعا عن القضية الوطنية في إطار الحركة الطلابية الجزائرية بكل من تونس ومصر وأمريكا. وكتب شعرا ثوريا حتى قبل اندلاع الثورة الجزائرية. كما ساهم في رد العدوان الثلاثي على مصر سنة (1956). وشارك بقلمه شاعرا وناقدا في جريدة "البصائر" لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكتب فيها ركن "رسالة القاهرة".

حضر الراحل حدثا تاريخيا هاما، يتمثل في الإعلان الرسمي عن تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية GPRA بالقاهرة، شهر سبتمبر من سنة (1958)، وهي الهيئة التي احتك ببعض قادتها ووزرائها. كما أنه عمل لمدة بإحدى مصالحها. حضر المرحوم وناقش وأشرف على رسائل جامعية، ودُرس في عدد من الجامعات الكبرى في العالم، بأمريكا والأردن والمملكة السعودية وسوريا، وكان عضوا في الكثير من المجالس والهيئات العلمية، كان ذا قلم سيال مسير للعصر والراهن، وصاحب فلسفة (مدرسة) في تدوين التاريخ. عرضت على الراحل مناصب عليا في الجزائر، لكنه اعتذر عن توليها، بل في سبيل العلم، ورغبة منه في عدم الاشتغال عنه بغيره. لذلك، وبموجب حبه للبحث والتنقيب، وجدناه يعتذر عن تولي كل من "الإدارة والوزارة والسفارة". وتوفي رحمه الله عليه يوم 2013/12/14 بالجزائر العاصمة، بعدما اشتد عليه المرض. وتفاعل مع رحيله العالم كله وليس الجزائر فقط. وحضرت جنازته التي أوصى أن تكون شعبية، جموع غفيرة، ودفن بمسقط رأسه في بلدية قمار بالوادي حسب وصيته التي نفذت بحذافيرها من طرف ذويه.

يقول الدكتور (جورج سالم حجار) في وصفه للراحل: "يمكن التعريف بالأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله بثلاث صفات وراثية: انه جزائري، عربي، مسلم سني مالكي. وبناء على هذه الأرضية البيئية التاريخية والانجازات التي حققها ضمن هذه المنظومة أو التشكيلة المجتمعية التاريخية، يمكن القول: انه أديب بالفطرة، ومؤرخ بالجهد والموهبة، وأستاذ جامعي بالحرفة، وهذه الصفات الثلاث هي صفات مكتسبة"<sup>2</sup>.

1- خلف الشيخ البشير الإبراهيمي سابقه ورفيق درجه الشيخ عبد الحميد بن باديس على رأس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد وفاة الأخير في 16 أفريل سنة 1940. وكان للإبراهيمي الدور الفاعل في التعريف بالقضية الجزائرية في المشرق قبل وأثناء الثورة التحريرية. وأقام الراحل سعد الله بيت الإبراهيمي منذ الليلة الأولى التي وصل فيها القاهرة للدراسة، وكان الشيخ لا يعرفه يومها، وهو ما أغضبه، متسائلا عن جرأة هذا الفتى الذي يطرق بابه ليلا دون سابق اشعار ولا موعد. غير ان نظرة الأول للثاني تغيرت في ما بعد وصار سعد الله الوحيد الذي يتجرأ عليه من بين جميع الطلبة الجزائريين المقيمين بالقاهرة خلال سنوات الخمسينيات. وحدثت بين الاثنين طرائف كثيرة. لمزيد من المعلومات حول الموضوع انظر كتاب (حديث صريح).

2- نشرت مجلة (آمال) الجزائرية بتاريخ ماي - جوان 1983، الفصل الأول من كتاب عنوانه "تاريخ الجزائر بنظرات سعد الله"، لمؤلفه الدكتور جورج سالم حجار، وجاء الفصل تحت عنوان "قراءة في مؤلفات سعد الله". وعلمت من الدكتور أبي القاسم سعد الله، أنه سمع فعلا بمشروع هذا الكتاب، وأدرك أنه لم ينشر بل بقي عبارة عن مخطوط لدى صاحبه بلبنان. ولم يتمكن من التأكد من صحة الأمر بعد وفاة الراحل. وكتبت المجلة مقدمة راقت المقال، ورد فيها أنها طلبت من صاحب الكتاب (د. حجار) السماح لها بنشر الفصل الأول منه، وأنها لا تتبنى ما جاء في الكتاب وإنما تود إتاحة الحوار فقط، معتمدة على "السبق الأدبي"

#### 4 عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية-الإسلامية والإنسانية:

يتحدث المرحوم سعد الله عن هذا الكتاب فيقول: "ولو طلب إلي أن أختار تسمية جديدة لهذا الكتاب لاخترت له اسم (الموسوعة الثقافية الجزائرية)، ذلك أن أجزاءه الجديدة تضيء عليه هذا الطابع عن جدارة. ومع ذلك فاني سأبقي على العنوان الأصلي، فهو الذي عرف به في معظم مكتبات العالم". مضيفاً أن الأخير "هو ثمرة جهود دامت حوالي ربع قرن". وكتب عنه الشيخ البشير الإبراهيمي سنة 1960 بكونه: "مشغوف إلى حد الافتتان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور. وان هدفه من البحث هو إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور. ذلك أن المستعمرين الفرنسيين قد بثوا طيلة احتلالهم للجزائر بأنه لم يكن لأهلها ماض سياسي ولا ثقافي، وزاد إهمال الدارسين العرب والمسلمين لتاريخ الجزائر من حرص على البحث والتنقيب. فالجزائر قد ظلمها أعداؤها وأشقاؤها على السواء، وظلم ذوي القرى اشد مضاضة على المرء".

ثم يشير الراحل، إلى أن النهضة الوطنية حين بدأت في الجزائر كان مثقفوها غالباً من خريجي المدارس الفرنسية الذين لم يكن يربطهم بماضي الجزائر سوى الدين وبعض التقاليد والذكريات الشعبية. وقد كان هدفهم الأساسي هو التحرر، ولم يكن الكشف عن دور الجزائر الثقافي جزءاً من برنامجهم. بل إن حركة ابن باديس التي ركزت على الجانب الثقافي بقدر من النهضة الوطنية، لم تعتن في مدارسها بتاريخ العرب والإسلام عموماً. ومرد ذلك بدون شك إلى ندرة المصادر وقلة الباحثين المتخصصين في هذا الموضوع.. (باستثناء جهود المرحومين الشيخ مبارك المليي والشيخ احمد توفيق المدني).

#### 5 تقييم لثقافة الجزائر وإسهامات علمائها عبر العصور:

وبما أن الكتاب يتطرق عبر أجزاء عديدة إلى فترة الوجود العثماني بالجزائر، فإن سعد الله تحدث عن حكام هذه الفترة وقال إنهم كانوا يوصفون من طرف الكتاب الجزائريين بالحكام الأتراك والأعاجم والعلاج لكونهم - الحكام- كانوا من خارج الجزائر وكان أغلبهم لا يتكلم إلا التركية وكانوا من أصول مختلفة (تركية، يونانية، ألبانية، إيطالية، الخ). ثم يعدد الراحل مزايا الحكم العثماني في الجزائر وحسناته كما يورد مساوئه وسلبياته في مجالات الحكم والسياسة والثقافة والدين وشؤون المجتمع، مؤكداً على فكرة الجمود الثقافي التي يقول إنها كانت سائدة خلال تلك المرحلة. ومع ذلك فهو يجد أن المخطط البياني للثقافة في الجزائر كان يسير في حالة اطراد وصعود. فبعد معاناة الثقافة في القرن السادس عشر الميلادي، والذي شهد هجرة العلماء الواسعة وكثرة الحروب، أخذت الحياة تدب فيها في القرن الموالي بفضل استقرار الأوضاع السياسية وازدهار الحياة الاقتصادية وتوارد العلماء المسلمين على الجزائر ووفرة الكتب. ثم شهد القرن الموالي حركة قوية في صفوف العلماء والعناية بالتعليم وكثرة التأليف، بفضل مساهمة بعض البايات أمثال صالح باي والحاج محمد الكبير. وظهر علماء كبار مثل ابن سحنون وأبو راس وابن العنابي، الذين اهتموا بالعالم الخارجي للجزائر.

في نشر الأعمال المتعلقة بالجزائر. وجاء المقال في 23 صفحة، وضم تحليلاً لـ 13 عملاً للراحل سعد الله بين الأدب والمقالة والبحث الأكاديمي، وهي تشكل كلها باكورة إنتاجه. للإشارة، فإن مقال مجلة (آمال) طلبه الدكتور سعد الله من الأستاذ لحسن بن علجية الذي أرسل إليه نسخة منه بتاريخ 2010/07/16، ولقد سلمني الراحل المقال في ما بعد.

مشيرا إلى سيطرة عدد من الظواهر على الحياة الثقافية في العهد العثماني، من أهمها انتشار التصوف والدروشة وشيوع الشروح والحواشي على أعمال المتقدمين والثقافة الموسوعية والحفظ وتقديس أعمال السابقين. غير أنه يتدارك بالاعتراف بأن الثقافة في العهد العثماني كانت عربية إسلامية في صميمها، المشتركة والشائعة عندئذ في العالم الإسلامي، فمنهج التعليم كانت واحدة وحدود الأفكار واحدة، ومعاهد العلم التي ارتادها علماء الجزائر متشابهة والطرق الصوفية هي هي، سواء أخذوها في المغرب الأقصى أو في العراق. وأن على الجزائري التباهي بكونه قد أسهم بهذا الإنتاج في حركة المد التاريخي والحضاري للأمة العربية الإسلامية.

ويتطرق الكتاب في جزئه الأول (1500 - 1830) إلى مسائل عديدة ومتشعبة تخص حياة المثقفين وإنتاجهم في الفترة المذكورة بالجزائر، مثل الأدب واللغة والتصوف وعلم الكلام والمنطق والعلوم وعلوم الدين ودور المدن والحياة الدينية والفنية والمساجد والأوقاف والزوايا والرباطات والمدارس والمعاهد العليا والمكتبات وسياسة التعليم ووسائله ومكانة العلماء ووظائفهم وتنافسهم وميزاتهم وعلاقتهم بالحكام وهجرتهم وتعليم المرأة والمواد المدرسية وأجور المعلمين وغيرها. كما يشير إلى كم هائل من أسماء العلماء الذين لم نكن نسمع سوى القليل عنهم، ممن طرقت أبواب المواضيع والقضايا سالفة الذكر، من أمثال: النقاسي والحوضي والثعالبي وابن زكري والقسنطيني وأبو عصيدة والملياني وعمر الوزان وسعيد قدورة وسعيد المقرري وعبد الكريم الفكون وغيرهم كثير.

ويواصل في الجزء الثاني (1500 - 1830) المهمة نفسها، بعرض واف لعدد من العلوم، الشرعية مثلا، والتي يقول إنها كانت تمتاز في الغالب بالتقليد أكثر من التجديد، وبرز ذلك لدى بعض العلماء في التفسير والقراءات وعلم الحديث والإثبات والإجازات والفقه والنوازل والفتاوى وعلم الكلام والتصوف والمواعظ والردود والمنطق وغيرها. ثم يعرج بالحديث عن علوم اللغة والنشر الفني كالخطابة وأنواع الشعر والوصف والرسائل والعقود والألغاز والتاريخ والتراجم والرحلات والفنون والعلوم، كالحساب والفلك والطب والجراحة والصيدلة والموسيقى والغناء والعمارة والخط والرسم. ويسرد أعمال وسير عدد من الأسماء في ذلك كله، مثل عبد الرزاق بن حمادوش والورتلاني وابن علي وأحمد بن عمار وأحمد البوني وغيرهم. علما وأن المجلدين الأول والثاني طبعوا معا سنة 1981 و1985.<sup>1</sup>

## 6 هل كان موقف الراحل من الحقبة العثمانية في الجزائر "متريدا"؟<sup>2</sup>:

قد يتساءل عدد من الباحثين عن حقيقة موقف الراحل من الحقبة العثمانية في الجزائر، وعن طبيعة نظريته للوجود العثماني فيها. ويمكن القول أنّ نظرة الراحل سعد الله لم تكن موافقة ولا مناهضة للوجود العثماني في الجزائر، بل إنه حللها من خلال وجهات متباينة وشاملة،

1- (مراد وزناجي)، موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي للدكتور أبي القاسم سعد الله: تأصيل لبانوراما الثقافة الجزائرية بأطياف فسيفسائية، مجلة عالم الكتب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، عدد خاص، نوفمبر، 2016، ص39.

2- نشرت جزءا من هذا المحور الخاص بموقف الراحل الدكتور سعد الله من الوجود العثماني بالجزائر في يومية "الخبر" الجزائرية بتاريخ: 2012/02/03. ولقد استحسنته الراحل يومها بعد اطلاعه عليه، وبعث إلي برسالة الكترونية بهذا الخصوص. جاء المقال ردا على ما ورد في ندوة عنوانها "أين المؤرخون من نقاش" الحقبة العثمانية؟ والتي نظمتها الجريدة ذاتها. وصرح أحدهم يومها أشياء غريبة عن الموضوع وأسندها إلى الدكتور سعد الله، وكات من باب "ويل للمصلين".

وباختلاف تجليات الحكم العثماني ببلادنا، فهي -وجهات النظر- قد تبدو متباينة ومتناقضة في الظاهر، لكنها متكاملة في الواقع. النظرة الأولى أبان عنها الأستاذ في الجزء الأول من موسوعته "تاريخ الجزائر الثقافي"، حيث "انتقد" العثمانيين في وصفه لهم بـ "الأعلاج، المتركين، الجهلة، لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، المغامرين" .. الخ. ووصف الدكتور ناصر الدين سعيدوني مآخذ زميله سعد الله على الحكم العثماني في الجزائر بالقول: "إنها تدخل في باب العتاب، وليس العداء والقطيعة مع البعد الإسلامي، الذي كانت تمثلته الرابطة العثمانية".

وبعد عقود من نشر هذا الموقف إزاء العثمانيين الذين دخلوا الجزائر، أضاف الدكتور سعد الله إلى موقفه ذاك عناصر جديدة، ولكن من دون أن يغيره كلية، وهو ما ورد في كتابنا "حديث صريح مع أ. د. أبو القاسم سعد الله، حيث دافع عن سياسة العثمانيين ثقافيا ولام الرعية، حين أجاب عن سؤالنا بالقول: "كانوا (العثمانيون) يتبعون نفس السياسة، وهي عدم التدخل في الشؤون التعليمية والثقافية، وهذه سياسة إسلامية متوارثة، ولا أكتفكم أنني أحالف الرأي الذي يلقي التبعة دائما على أصحاب السلطة والنفوذ، ذلك أن الشعب أو الرعية إذا لم تقم بواجبها فلماذا يلام الحكام وحدهم؟ وما الحاكم إلا واحد منهم"<sup>1</sup>.

وهكذا، يكون الدكتور، في هذا الوضع، قد انتقد، بحسب وجهة النظر الأولى، الجانب العسكري الخوض الذي ميّز دخول العثمانيين إلينا، أما في الثانية فإنه امتدح النواحي الثقافية فقط. الأمر الذي نجده يتردد في الكتاب ذاته (حديث صريح)، حيث أنه يعدّ إنجازات العثمانيين عسكريا وسياسيا واقتصاديا فيقول: "لو تشبع الجزائريون من دراسة العهد العثماني، وعلموا أن الجزائر قد أخذت شكلها الجغرافي والسياسي منذ هذا العهد، لامتألوا فخرا واعتزازا. فوجود (العاصمة) الجزائر يعود إلى هذا العهد، والحدود السياسية ترجع إلى هذا العهد، والشكل الجغرافي - ما عدا في الجنوب- يرجع إلى هذا العهد، والمعاهدات الدولية مع رجالها يشهد عليها هذا العهد، والأسطول تأسس في هذا العهد، والوحدة الترابية من مخلفات هذا العهد، وسك العملة ووجود الراية يرجعان إلى هذا العهد."<sup>2</sup>

من جديد، يتكرر صدى هذا الموقف حينما يعزّز الدكتور سعد الله الرأي السابق لصديقه الأستاذ سعيدوني ويعلق عليه، إذ يقول في طبعة موائية من الكتاب المذكور (حديث صريح)<sup>3</sup>، والصادرة بعد سنتين من ذلك: "لقد صدق الدكتور سعيدوني في استنتاجه. فكما أحاسب النظام اليوم عندنا وعند الآخرين، فكذلك أحاسب النظام العثماني على سلبياته التي قادتنا إلى كارثة الاحتلال، فلو أقدم النظام العثماني وأشرك معه الشعب وسائر النهضة الأوروبية في أمور لما وقعنا فريسة للاستعمار (..)". ليختم حديثه عن الدولة العثمانية بربط الماضي بالحاضر قائلا: "قد تعود اسطنبول الصغرى بديلا عن باريس الصغرى". ويجيب في ذات الكتاب (ص 112) عن طبيعة الحقبة العثمانية عندنا بالقول: "هو فتح في عصر الحروب الدينية، وهو تدخل أو دخول في عصر العدوان على الشعوب الإسلامية وقت ضعفها وتنازعها، وهو احتلال في عصر القوميات. وهو ليس تواجدا ولا دخولا، لأن التعبيرين يعنيان زمنا قصيرا غير مؤثر، بينما العهد العثماني - ثلاثة قرون وأكثر- له تأثيره وطابعه الخاص"<sup>4</sup>.

وهو ما يمكننا اعتباره محو لـ "التشويش" الذي يكون قد طال فهم بعض الدارسين لنظرتهم الأولى نحو الوجود العثماني ببلادنا، والذي لم يكن مترددا ولا مضطربا بقدر ما كان منصفًا. "ويستشفّ من كل ما سبق أن موقف الدكتور سعد الله، في إحاطته بجميع الجوانب المتعلقة

1- مراد وزناجي، حديث صريح مع أ. د أبو القاسم سعد الله: في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، منشورات الحبر، ط1، الجزائر، 2008، ص 111.

2- نفسه، ص 113.

3- مراد وزناجي، حديث صريح مع أ. د أبو القاسم سعد الله: في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، منشورات الحبر، ط2، مزودة ومنقحة، الجزائر، 2010، ص 214.

4- نفسه، ص 112.

بقضية الحقبة العثمانية بالجزائر، (سياسيا، ثقافيا، عسكريا...)، لا يحتوي على أي تناقض، بل يصبو لأن يكون أكثر موضوعية، بالحديث عن السلبيات والإيجابيات معا، بعيدا عن عناصر القطعية والعاطفة والانغلاق والتزمت والتحيز، ولأجل الاقتراب أكثر من الحقيقة العلمية. لذلك، فإنه لا يمكن مقارنته بغيره من المواقف، حيث أنه يحاول ان يكون شاملا ومتكاملا، محكّ الوثيقة الأرشيفية، وضالته الحقيقة التاريخية<sup>1</sup>.

## 7 هوية الجزائر في مواجهة غزو الثقافة الفرنسية:

ويواصل الباحث سعد الله في الجزء الثالث من الكتاب على المنوال ذاته، من السرد والتحليل، ولكن خلال فترة أخرى، وهي فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، وقبل اندلاع الثورة التحريرية (1830 - 1954)، وهي المرحلة التي خصص لها الرجل بقية أجزاء الكتاب، وإلى غاية الجزء الثامن. وغطى الجزء الثالث، مختلف العلوم والفنون والآداب والتعليم في المدارس القرآنية والمساجد، وأعيان المدرسين بالعاصمة، مثل القديري والارناؤوط وبوقندورة والعمالي وابن الحفاف وكمال بن الخوجة وابن الشيخ وابن سماية وابن زكري، والتعليم بغرب البلاد وشرقها وجنوبها، ورواده، مثل الشيخ الونيسي وبوجمة وابن مرزوق. وافرد حيزا للتعليم المزدوج والمعاهد والتعليم المهني وتعليم المرأة والفنون التقليدية والتعليم الفرنسي. ويقر الراحل سعد الله بكونه درس في هذا الجزء مساهمات الفرنسيين والجزائريين معا. ذلك أن دراسات الفرنسيين للفن واللغة والآثار والطرق الصوفية وغيرها، داخلية في صميم هذا الموضوع الثقافي. وهي أعمال المستشرقين والمترجمين والمؤرخين والفنانين الفرنسيين، المستوحاة من تراث الجزائر، محاولين توجيهها نحو وجهة تخدم المصالح الفرنسية. وهنا يكمن الفرق الشاسع بين الفرنسيين والعثمانيين. فهؤلاء لم يكتبوا عن الثقافة الجزائرية بل تركوا الأمر لأهل البلاد أنفسهم، بينما اهتم الفرنسيون بشؤون الثقافة وزحزحوا عنها علماء وأدباء البلاد. وغطى الكتاب أيضا دور المهاجرين الجزائريين في المشرق والمغرب، في مجالات الصحافة والسياسة والدين والأدب. وخلص الى القول انه وعلى الرغم من أن مساهمة الجزائريين كانت كبيرة جدا لدى العرب إلا أن بلادهم الأصلية خسرتهم. وكتب الراحل مقدمة الكتاب سنة 1996، وأهداه لأمه (هالي عبديّة) التي توفيت ولم يرها بسبب بعد المسافة أثناء وجوده بأمريكا في تلك الفترة بداعي هذا العمل، ولم تقبل الوالدة الكتاب، كما اعتادت أن تفعل، ما حز في نفسه كثيرا.

وجعل الجزء الرابع للحديث المفصل عن الطرق الصوفية، وأهم المصطلحات والتعاريف المستعملة فيها وعنّها، وقام بالتأريخ لحوالي ستة وعشرين طريقة صوفية في الجزائر، متحدثا عن علاقتها بالمقاومة الشعبية وبالسياسة، وعن محاولة توظيفها وتدجينها من طرف المستعمر الفرنسي. وقدم إحصائيات وأرقام تخصها وقتذاك. فيما تحدث أيضا عن السلكين الديني والقضائي، ورجال الدين وعلاقتهم بالسياسة، وتصنيف المساجد، وتجربة المجالس القضائية، ومسألة تدوين الفقه الإسلامي، والعرائض التي كان يكتبها الشيخ المكي ابن باديس (جد الشيخ عبد الحميد بن باديس)، ومقدما لنماذج من القضاة مثل ابن المختار وابن الحاج موسى والزهار وبريهما والأشرف وغيرهم.

1- مراد وزناجي، (2012)، حقيقة موقف الدكتور ابي القاسم سعد الله من الحقبة العثمانية في الجزائر:

<https://www.djazairss.com/elkhabar/279177>

فيما جاء الجزء الخامس ثريا بمادة متنوعة، مخصصا للمعالم الإسلامية، وعلى رأسها المساجد ومصيرها، والموجود منها بالعاصمة وهران وقسنطينة ومنطقة الوسط، والأضرحة والزوايا وأموال الوقف والمساعدات الخيرية وجمعيات الإغاثة، ثم المنشآت والمراكز الثقافية، كالصحافة الفرنسية والعربية وروادها، مثل عمر بن قنور وعمر راسم وأبو اليقظان. ثم الإذاعة والسينما والمطابع والجمعيات والنوادي الثقافية، ومصير المخطوطات، والمكتبة الوطنية والمكتبة الجامعية والمكتبات العسكرية والمكتبات الخاصة، والنساحة والمكتبات البلدية والمدرسية، والمسرح والموسيقى بأنواعها وآلاتها وأراء عدد من المستشرقين فيها، وأهم روادها، مثل محي الدين باش تارزي ومحمد بن علي سفنجة ورشيد القسنطيني وغيرهم. وختم الكتاب بالحديث عن هجرة الجزائريين نحو المشرق والمغرب وبعض الدول الأخرى، وعن ثلة من أعيان الجزائر هناك، وعن عائلة الأمير عبد القادر بالمشرق وزيارة الشيخ محمد عبده، وإحصاء لبعض الجمعيات والجرائد والأحداث الثقافية.

ووردت في الجزء السادس تفاصيل وافية حول عوالم الاستشراق ومراحله وإنتاج رواده بالجزائر وحياتهم وكذلك بالنسبة للمستعربين، والهيئات العلمية ولجنة الاكتشاف العلمي ولجنة الاحتفال بمئوية احتلال الجزائر العام (1930)، والمعاهد الجامعية والجمعيات المتخصصة ومشاركة المثقفين الجزائريين في البعثات العلمية، ودور الكنيسة ونشاطها التنصيري ورواده، مثل دويوش وبافي ولا فيجري ودي فوكو، ونشأة الأسقفية. إضافة إلى مجال الترجمة وظهور النخبة الاندماجية والمترجمون الجزائريون ومترجمو الحملة الفرنسية على الجزائر والترجمة إلى العربية، وفكرة معهد العالم العربي وأسر الأطفال وحملهم إلى فرنسا، ونماذج من المثقفين الاندماجين والدعاة الأوائل للتعليم باللغة الفرنسية. ولم ينس البروفيسور سعد الله الإدلاء بدلوه بخصوص الموقف من الاحتلال ومختلف أراء منظري الاستعمار، وسياسات فرنسا الجهنمية على المستوى الاجتماعي والثقافي مثل "فرق تسد". ومعاداة العرب التي يقابلها معاداة البربر والتآمر على منطقة زواوة بالقبائل والاندماج والتجنس والنخبة. وتكلم عن الجزائر في الكتابات الفرنسية، وعن اليهودية والصهيونية والماسونية والمثالية والاشتراكية والإسلام ووحدة الأديان.

## 8 عن حقيقة ايدولوجية الثورة الجزائرية:

وضم الجزء السابع معلومات أخرى بخصوص العلوم الدينية والتصوف، وزود القارئ بمعلومات جديدة عن مؤلفين وباحثين وأدباء ومفكرين آخرين. والجميل فيه هو تطرقه لبعض العلوم التجريبية كالطب والتقاليد وممارسات الطب في عدد من المناطق الجزائرية مثل الاوراس، يضاف إليها ما أسماه هو بالطب السحري والخرافي، وبعض المؤلفات الخاصة بالطب والصحة ورواد هذا المجال على غرار بلعري ومرسلي وابن التهامي. وتحدث عن مدرستي الطب والعلوم، كالفلك والحساب وعلوم أخرى كثيرة. فيما خصص الفصل الأخير من الجزء لمجالات التاريخ، بما فيها التاريخ المحلي، لعدد من المناطق بالوطن، وكذا التراجم والرحلات والمذكرات وأهم العلماء فيها.

وجاء الجزء الثامن، الأخير من السلسلة، مخصصا لفترة ما قبل الثورة (1830 - 1954). وجعله المؤلف لمجالات اللغة والنشر الأدبي والشعر والفنون. ووردت في تفاصيل الكتاب حالة الأدب والثقافة غداة الاستقلال والتعامل مع اللغة والدراسات البربرية التي ظهرت وقتها نتيجة لما يعرف بالسياسة الفرنسية البربرية، وتقسيم السكان إلى عرب وبربر حتى تعلو كلمة الفرنسيين وحدهم، فيما اهتم العدو الفرنسي بالعربية ولهجاتها لحاجته إلى فهم الشعب الجزائري والاتصال به والتعامل معه. علاوة على الدراسات النحوية والمعاجم (عند بلقاسم بن سديرة وعمر بوليفة)، وكذا النشر الأدبي والمقالة الصحفية، ودراسة الأسلوب عند عاشور الخنقي والإمام الإبراهيمي، والرسائل والتقارير

والخطابة (لدى محمد الصالح بن مهنة وأبي يعلى الزواوي)، والروايات والقصص والمسرحيات المقامات وأدب العرائض والنداءات والنصائح، ودراسة الأدب والتحقيق لدى محمد بن أبي شنب والأدب باللغة الفرنسية، وتطور حركة الشعر بأنواعه مثل نموذج مبارك جلواح، والفنون التقليدية (الشعبية)، ونظرة الفنانين الفرنسيين للجزائر والشرق عامة، ودراسة أنموذج "فيلا عبد اللطيف" الشهيرة بالعاصمة، ومعارض الفنون الإسلامية والآثار الدينية والقصور والمباني الحضرية والمتاحف، ودراسة شخصية وإنتاج الفنان نصر الدين (إيتيان) ديني، والنقش والرسم والخطاطة وعمر راسم وأخوه محمد وآخرون، وتحليل مضمون المؤلفات التي درست المسرح ورواد التمثيل والموسيقى والغناء، وتحليل لإنتاج الموسيقار محمد إقربوشن الجزائري الأمازيغي<sup>1</sup>.

## 9 بحث في ثقافة الثورة، عوض تاريخها السياسي والعسكري:

معروف عن الراحل سعد عدم خوضه في القضايا السياسية والدبلوماسية والعسكرية، المرتبطة بمرحلة الثورة التحريرية الجزائرية (1954 - 1962)، لاعتباره أن الوقت لم يحن بعد لذلك، مفضلا الاهتمام بمراحل تاريخية سابقة بالجزائر، وايضا لعدم توفر الوثيقة التاريخية من جهة، ولقرب تلك المرحلة منا من جهة أخرى، أو لكون من صنع تلك الثورة ما يزال على قيد الحياة. لكن الجانب الثقافي من تلك الحقبة اجتذبه، فاهتم به وكتب عنه، بدليل الكم الهائل من المعلومات والشروحات الوافية الواردة في الجزء التاسع من الكتاب قيد الدراسة، بالرغم من اعتراف الرجل بصعوبة الكتابة عن الثورة، حتى في جانبها الثقافي. علما أن المؤلف ظل يفرق بين الرأي الشخصي والحقيقة العلمية في كل ما كتب، حتى قيل عن كتاباته إنها: "تناولت مجالات عدة في التاريخ، على أسلوب من السهل الممتنع، في جمل بليغة دقيقة واضحة المعنى، وفيها ما يدعو إلى إعمال الفكر، وانتقال المناسبات المماثلة إلى الذكريات الملحوظة والغايات المقصودة في بيان ساهر وتأليف متناسب وسبك محبوبك الأطراف. فهو يربط بين تطورات الأحداث والأفكار في الجزائر والوطن العربي. يحاول أن يبين أن الجزائر لم تكن نهائية في مجالها الحضاري عن الساحة الفكرية ولا الساحة السياسية، بل كانت أحيانا سبابة في كثير من الأمور، وهو بذلك يريد إحياء أجداد الوطن والأمة العربية الإسلامية، فالتاريخ عنده هو مرآة تتراءى فيها الأحداث كما وقعت، وليس كما نريدها أن تقع، وهذا المفهوم هو مفهوم فون رانكي L. VON RANKE، مؤرخ ألمانيا المشهور. والتاريخ في نظر سعد الله (لا يكتب من وجهة النظر الحزبية أو بمنظار الطرقية أو بلون الحركة الإصلاحية أو على ضوء الإيديولوجيات العالمية، ولكن المؤرخ الحق، هو الذي يفرق بين ميوله الشخصية ومهمته الوطنية والقومية والإنسانية، فالتاريخ لا يكتب وفق الأهواء والميول ولكن حسب منطق ومفهوم الوثائق، مع الأخذ بعين الاعتبار جميع معطيات القضية التي تعالج)<sup>2</sup>. ونجد أن الكاتب خصص له أحد عشر فصلا، وقعت في 683 صفحة. ويتهم فيها د/ سعد الله بعض الأشخاص بالابتعاد عن المبادئ والثوابت التي انبنت عليها الثورة في بدايتها (الانتماء الحضاري للعروبة والإسلام واللغة العربية)، خاصة بعد سنة

1- مراد وزناجي، موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي للدكتور أبي القاسم سعد الله: تأصيل لبانوراما الثقافة الجزائرية بأطراف فيسفسائية، (مجلة عالم الكتب)، مرجع سبق ذكره، ص 40.

2- د. محمد بلقاسم، المدرسة التاريخية الجزائرية، اتحاد المؤرخين الجزائريين، بحوث الملتقى الوطني الأول حول المدرسة التاريخية الجزائرية، سلسلة بواكير، ط1، الجزائر، 1998. ص ص 99، 100.

1956، وهو ما تفاقم بعد الاستقلال، ويرى أن الالتزام قد حلت محله لغة التشكيك والمساءلة والعلمانية المفرطة التي وصلت في النهاية إلى تبني الاشتراكية العلمية لأسباب معلومة.

ويتحدث صاحب هذه الموسوعة عن الحالة الاقتصادية والإدارية والسياسية والاجتماعية، وعن جمعية العلماء المسلمين وبعثاتها، والكشافة الإسلامية والجمعيات والشؤون الإسلامية والحالة الثقافية والتعليم واللغة العربية عشية الثورة. ثم نجد يستفيض في الحديث عن الثقافة في نصوص الثورة من خلال بيان الفاتح من نوفمبر ومؤتمر الصومام والحكومة المؤقتة وتقرير لجنة صبيح ونصوص الطلبة، ثم يتساءل عما إذا كان للثورة إيديولوجيتها الخاصة؟ يجيب على لسان الرئيس الثاني للحكومة المؤقتة، بن يوسف بن خدة، الذي يعتقد أن الإجابة هي بنعم، وإن للثورة مبادئ وفلسفة وأفكار انبثقت عنها، لكنه يفرق بين مبادئ الشعب ومبادئ القادة. وتحدث عن الثقافة في الإعلام الرسمي وبرنامج طرابلس. ثم تطرق إلى مسألة الهوية والأدباء بالفرنسية، حيث تكلم عن النظام التربوي بالجزائر والإسلام وتعليم التاريخ، وأبعاد الهوية الثقافية، وعن رأي مالك بن نبي في كل من عبان رمضان وفرانس فانون، وعن اضطهاد المثقفين، وعن القومية العربية من خلال جريدة المجاهد، وأدباء اللغة الفرنسية (ديب وياسين ومعمري وفرعون وجبار).

ثم تناول قضية الإعلام أثناء الثورة من صحافة وإذاعة وتلفزيون وإعلام فرنسي، ومكاتب جبهة التحرير الوطني الإعلامية، والفريق الوطني لكرة القدم، وأعمال الوفد الخارجي والمسؤول السياسي. وقدم إحصائيات متنوعة حول التعليم والتنظيمات الطلابية ونشاطها وإضرابها، بالجزائر والخارج. ولم يغفل الحديث عن المسرح والغناء والسينما والموسيقى والرسم والخطاطة والمتاحف، وعن أنواع النشر بما في ذلك المقالة، ومسألة الفصحى والعامية والفرنسية والخطابة والترجمة والقصة والرواية. ثم عن الشعر وأنواعه وقدم نماذج من الشعراء. وعن الدراسات التاريخية والفلسفية والرحلات والطب والصحة العامة. ثم عن متفرقات أخرى مثل الحج والسياسة والشباب وزيارة الوفود ومعهد فاروق وفرقة يوسف وهبي، ومواقف المثقفين الفرنسيين من الثورة، والمناضلة جميلة بوحيرد في السينما والأدب، والثورة في الشعر العربي والأدب العربي في أعين النقاد العرب ومسألة اللغة العربية، خاتما الكتاب بجملة وثائق ورسائل<sup>1</sup>. وكعادة الدكتور، أبو القاسم سعد الله، في كتبه سابقة والأخرى اللاحقة<sup>2</sup>، فإنه خصص جزءا كاملا (العاشر) للفهارس العامة، مثل فهرس المؤسسات والمراكز الدينية والفنية والثقافية الواردة في السلسلة، وفهارس الأماكن والأشخاص والشعوب والقبائل والأقوام والأحزاب والجمعيات والمؤتمرات والكتب والدوريات والمجلات، حتى يسهل على القارئ مهمة البحث والتنقيب في طيات أجزاء الكتاب.

## 10 - ملامسة تاريخ الفترة الإسلامية:

1- مراد وزناجي، موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي للدكتور أبي القاسم سعد الله: تأصيل لبانوراما الثقافة الجزائرية بأطراف فسيفسائية، (مجلة عالم الكتب)، مرجع سبق ذكره، ص 41.

2- لم يتم طبع جميع المخطوطات التي دوّنها الراحل سعد الله قبل وفاته، إذ، وبوصية منه لعائلته، تم تأجيل إصدار الجزء الثاني من مذكراته (حياتي)، والجزء الأخير من سلسلة (يوميات، مسار قلم)، وهما حاليا تحت الطبع، وكان من المفروض أن يكونا جاهزين بمناسبة معرض الجزائر الدولي للكتاب سنة 2020، بحسب ما استقيته من نجله أحمد الذي يتابع العملية عن كثب.

صدر آخر جزء من سلسلة "تاريخ الجزائر الثقافي" بعد فترة وجيزة من رحيل المؤلف، السبت 2013/12/14، وهو الجزء الذي تحدث فيه عن الثقافة والمثقفين وإنتاجهم بالجزائر منذ الفتح الإسلامي حتى عشية الدخول العثماني للجزائر (1500م)، وهي أبعد فترة غطتها السلسلة. كما أنه بمثابة الجزء الذي انهك الرجل، في رحلة البحث عن جهة تتكفل به، أثناء فترة البحث والتنقيب عن الوثائق والمادة، عبر عدد من دول العالم، من مكتبات ومراكز بحث وجامعات وزوايا وغيرها. وكنا نسعى مع الراحل، لدى عدد من الوزارات والهيئات لأجل التكفل بالمشروع، ولكن دون جدوى، حيث بقيت تلك المراسلات والتنقلات تنتظر الرد. ولأهمية هذا الجزء، وكثرة مادته، فإننا سنؤجل الحديث عنه إلى مناسبة لاحقة حتى نفيه حقه. علما وأن الكتاب المذكور صدر عن وزارة الثقافة الجزائرية عن طريق دار النشر "عالم المعرفة"، في إطار ما سمي "بتكملة الأعمال الكاملة" للدكتور سعد الله، وبمضمون غزير يخدم الباحثين والطلبة والمؤرخين. وكان الراحل يخشى أن تنطفئ الشمعة ولا يكتب هذا الجزء، مثلما كان يصرح لي دوما. لكن هذا الجزء من الموسوعة قد أخيرا، بعد أن كتبه الرجل قبل وفاته.

## 11 - مقارنة استنتاجية:

"ينتمي الأستاذ أبو القاسم سعد الله إلى مدرسة المؤرخين الجزائريين الذين ينطلقون من الانتماءات الوطنية والعربية والإسلامية للشعب الجزائري، ويرفضون بالمقابل، المفاهيم التي درج عليها معظم الكتاب الفرنسيين أو بعض المتشبهين بهم من الجزائريين، في نظرهم إلى الجزائر شعبا وثقافة وتاريخا. ولهذا، فانه يكون قد أسهم وبشكل فعال في إرساء قواعد المدرسة التاريخية الجزائرية من خلال مجالات التدريس بالجامعة الجزائرية، والإشراف على العديد من الرسائل الجامعية، وبفضل كتاباته وأبحاثه وآرائه حول مختلف القضايا الوطنية والعالمية الراهنة، مما جعله يترك ملامح واضحة في هذه المدرسة، وبذلك عرف بلقب "مؤرخ الأجيال"<sup>1</sup>.

يقول الدكتور ناصر الدين سعيدوني عن مسألة كتابة التاريخ في الجزائر وعن رفيقه الدكتور سعد الله: "كان من منطق الأشياء، وفي مثل هذه الظروف والأوضاع، أن يطفو على السطح نموذج المؤرخ السياسي المتحذلق والكاتب الإيديولوجي المتعصب والداعية المتحمس، على حساب مواصفات المؤرخ المحايد والكاتب الناقد والمحلل الموضوعي، فأصبح جل الإنتاج التاريخي عبارة عن تسجيل شهادات دون إخضاعها للتحقيق وإخراج مذكرات دون ترو أو مراجعة، وكتابة مواضيع مستهلكة تحت الطلب وحسب الحاجة والمناسبة، وأصبح الكل يردد في غفلة منه الأسطوانة المشروخة والمقولة الممجوجة، وهي أن "تاريخ الجزائر لم يكتب وأن أحداثه قد حرفت وأن نتائجه زورت وأن على من يعتبرون أنفسهم مؤرخين أن يتحولوا إلى كتبة ليسجلوا ما يملأ عليهم"، متناسين الحقيقة الأزلية وهي أن ليس هناك تاريخ يملأ حسب الحاجة ويخرج حسب الطلب، وهذا ما عبر عنه الأستاذ أبو القاسم سعد الله بقوله "إن الكتابة التاريخية عملية متجددة يمارسها كل جيل بالقدرة العقلية وطبيعة الوثائق المتوفرة لديه والمستجدات الحضارية التي تحيط به"<sup>2</sup>.

إن البعد الإنساني والموسوعي في شخصية الدكتور أبو القاسم سعد الله، ووعيه بالتاريخ وبأهمية الثقافة في المجتمعات، مكنه من الالتفات إلى إعداد كتاب جامع عن الثقافة الجزائرية عبر العصور، بالرغم من شح المصادر والشواهد. وتمثل الهدف من هذا العمل في ربط الجزائر

1- د. عبد الكريم بوصفصاف (إعداد وتقديم وتصنيف)، أبو القاسم سعد الله في ميزان الباحثين الجامعيين، ندوة تكريمية، (جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر: منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، 2004).

2- د. ناصر الدين سعيدوني، أبو القاسم سعد الله، كلمة وفاء، دار البصائر الجديدة، الجزائر 2014، ص 50.

بعناصر هويتها والتعريف بثقافتها وبعلمائها. لقد تمكن الرجل من "استقصاء وتسجيل خلفيات الاحداث الباطنة وعوامل التغيير العميقة، وربط الجزائر بمحيطها الطبيعي العربي الإسلامي، ودرة تيارات الاستيلاء الجارفة والنزعات الانعزالية الهدامة"<sup>1</sup>. وعلى الرغم من الدرجة العلمية التي بلغها المرحوم، وانتاجه العلمي الغزير، الا انه بقي متواضعا. فلقد كتب يوما يقول: "وأنا لا أدعي أنني وضعت نظرية في التاريخ أو الحضارة، سواء بالنسبة لتاريخ الجزائريين أو تاريخ العرب والمسلمين أو غيرهم"<sup>2</sup>. وقال مرة اخرى: "إنما أشعر أن الله خلقني لأجل غاية بعينها وليس عبثاً"<sup>3</sup>. وإذا كان الراحل قد عرف بمقته للأضواء، واعتذاره عن تولي المناصب، فمن واجب تلامذته وزملائه اليوم، العمل على تثمين جهده وتقدير علمه وسرد مناقبه. ولا يكون ذلك سوى بعرض اعماله وأفكاره على ميزان العلم، وهو ما كان يدعو اليه مرارا. لتبقى موسوعته "تاريخ الجزائر الثقافي" من أهم المراجع التاريخية المؤرخة للثقافة الجزائرية.

1- بشير بلاح، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة (كتاب جماعي)، إعداد نجيب بلخيرة، عالم المعرفة (الجزائر)، 2014، ص 94.

2- د. أبو القاسم سعد الله، حوارات- تأملات وأفكار -، (طبعة خاصة بوزارة المجاهدين) دار الغرب الإسلامي، 2004، ص 204.

3- مراد وزناحي، حديث صريح، ط2، مرجع سبق ذكره، ص، 214.

## قائمة المصادر والمراجع:

## أ - الكتب:

- 1 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 11 مجلداً، (تكملة الأعمال الكاملة)، طبعة خاصة بوزارة الثقافة، عالم المعرفة، الجزائر، 2015.
- 2 أبو القاسم سعد الله، حوارات- تأملات وأفكار -، (طبعة خاصة بوزارة المجاهدين)، دار الغرب الإسلامي، (الجزائر)، 2004.
- 3 بشير بلّاح، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة (كتاب جماعي)، إعداد نجيب بلخيرة، عالم المعرفة، (الجزائر)، 2014.
- 4 عبد الكريم بوصفصاف (إعداد وتقديم وتصنيف)، أبو القاسم سعد الله في ميزان الباحثين الجامعيين، ندوة تكريمية، (جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر: منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، 2004).
- 5 محمد بلقاسم، المدرسة التاريخية الجزائرية، اتحاد المؤرخين الجزائريين، بحوث الملتقى الوطني الأول حول المدرسة التاريخية الجزائرية، سلسلة بواكير، ط1، الجزائر، 1998.
- 6 مراد وزناجي، حديث صريح مع أ. د أبو القاسم سعد الله: في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، منشورات الحبر، ط1، الجزائر، 2008.
- 7 مراد وزناجي، حديث صريح مع أ. د أبو القاسم سعد الله: في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، منشورات الحبر، ط2، مزودة ومنقحة، الجزائر، 2010.
- 8 ناصر الدين سعيدوني، أبو القاسم سعد الله، كلمة وفاء، دار البصائر الجديدة، الجزائر 2014.

## ب-المجلات:

- 9- جورج سالم حجار، قراءة في مؤلفات سعد الله، مجلة (آمال)، الجزائر، ماي - جوان 1983.
- 10- مراد وزناجي، موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي للدكتور أبي القاسم سعد الله: تأصيل لبانوراما الثقافة الجزائرية بأطياف فلسفية، مجلة (عالم الكتب)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، عدد خاص، نوفمبر، 2016.

## ج-المواقع الإلكترونية:

- 11- مراد وزناجي، (2012)، حقيقة موقف الدكتور أبي القاسم سعد الله من الحقبة العثمانية في الجزائر: <https://www.djazairess.com/elkhabar/279177>.